1. **خواطر معماري وشاي في مراكش - 01**-

**على هامش مؤتمر السير والجولان في المدن بأغادير:**

**خواطر معماري وشاي في مراكش
-1-**

د. وليد أحمد السيد
الوطن العمانية, الأحد 13 نوفمبر 2011

وصلت, وسارة وموسى, عبر قطار الأنفاق إلى مطار هيثرو عصرا,أو بعيد زوال الشمس بقليل استعدادا لرحلة متجهة للدار البيضاء ثم أغادير في يوم من أواخر شهر إبريل هذا العام. كان موعد إقلاع الطائرة حسب المعلن عنه ما زال بعيدا,السادسة وأربعين دقيقة. نظرت لعقارب الساعة, كانت بطيئة متثاقلة تجر نفسها جرا أحيانا, ثم "تتعربش" أحيانا أخرى على صواميل الساعة الداخلية قبل أن تعلن الثالثة والنصف بعد الظهر. راح موسى يتراكض في أرجاء صالة المطار الفسيحة. في ذات الصالة الممتدة كانت هناك زاوية مخصصة للإنترنت جلس فيها أطفال لم تجاوز أعمارهم العاشرة يلعبون "بفأرة" الكمبيوترات, انضم لهم "السندباد"الصغير, فيما جاست الأعين في أرجاء الصالة الفسيحة شبه الخالية من الركاب.
"الطائرة ستتأخر" قالت الموظفة بعد تفحص الأوراق والجوازات. سألتها:"هل سننتظر طويلا؟", ردت:"ربما ساعة أو أكثر". أردفت سائلا مجددا:"هل من سبب للتأخير؟" قالت ببساطة:"الطائرة تأخرت بالإقلاع من المغرب". تعجبت في نفسي:" هل هي طائرة واحدة فقط تعمل على الخط غادية ورائحة"؟ هززت رأسي متعجبا قبل أن تكتمل عملية شحن الأمتعة ووضع الملصقات عليها. جاوزت الساعة الثامنة والنصف مساء, غاب قرص الشمس "وراء البحار", أعلن عن وصول الطائرة, ابتهجت الجموع المتكدسة في الصالة الرابعة بمطار هيثرو, التي لم تكن تعلم أن عليها الإنتظار قبيل ساعة أخرى حتى يتم "تنظيف الطائرة"! حوالي التاسعة ليلا تحركت جموع المسافرين التي ضاقت ذرعا بالإنتظار تجاه النفق المؤدي للطائرة. دارت العجلات والمحركات وزمجرت الطائرة صاعدة في عنان السماء مولية "بطنها" لعاصمة الضباب لا تلوي على شيء.
\*\*\*\*
بعد ساعات قليلة أعلن عن وصولنا لمطار الدار البيضاء. كان الظلام يسود الأجواء, والمطار. ثمة إصلاحات وكافتيريا داخلية يجلس عليها بعض الرفاق, مقاعد متناثرة على جنبات الصالة السفلية, تهاوت عليها الأجساد المنهكة من الرحلة الأولى بانتظار رحلة الترانزيت, الساعة جاوزت الحادية عشرة ليلا وكان المفروض أن نكون في أغادير قبل العاشرة ليلا حسب المواعيد المقررة أصلا, فهناك لجنة انتظار لتقلنا للفندق. السفر فعلا قطعة من العذاب, والإنتظار, والمجهول, حين تتعثر مواعيد الطائرات. وجوه متعبة وشاحبة من وعثاء السفر. صالة شبه خاوية في عتمة الليل, وأحاديث تجري بلغات, عربية, وفرنسية وانجليزية – وعربية ركيكة غير مفهومة,خليط من أكثر من لغة بلكنة "فرنساوية". بعد أكثر من ساعة من الإنتظار,حضرت الطائرة الداخلية, صعدنا واتخذ الركاب مجالسهم بعد أن عبرنا من صالة المطار إلى الباص الذي أقلنا لأسفل سلم الطائرة. زمجرت الطائرة وصعدت للسماء. بعد ساعة أو تزيد, هبطت لمطار أغادير. كان المطار أحسن حالا, مرتبا, حديثا, أنيقا, نزلنا لختم الجوازات, الموظفون لطيفون, وبهم شهامة عربية, طلب الموظف بأدب من موسى وأمه المرور والإنتظار على بعد خطوات من مكتب ختم الجوازات احتراما. قدرت له ذلك, فهو عربي أصيل, به شهامة ونخوة ومروءة. عبثت يداه في جوازات السفر, وقلب الأوراق وأمسكت يده الختم وطبع بضعة أختام ورحب بنا في المغرب.
وقفنا بجانب "حزام" الأمتعة المتحرك, كانت الساعة الثانية فجرا, تحرك الحزام وراح يدور ويدور, ما من أمتعة! بعد دقائق جاء موظف وأطفأ زر التشغيل, واستدار ليعود أدراجه, سألته:"أين الأمتعة؟, أجاب ببساطة:"هذا كل ما هنالك, إن لم تصل فهناك المكتب لتسجيل محضر للحضور لاحقا لاستلامها"! عظيم جدا, قلت في نفسي, تأخير وانتظار في المطار, ثم وصول دون أمتعة ساعة الفجر. بعد تسجيل الأمتعة المفقودة في المكتب والحصول على وصل لمعاودة القدوم للمطار بعد يوم او اثنين للمراجعة, توجهنا صوب صالة الخروج لملاقاة لجنة الإنتظار التي من المفروض ان توصلنا للفندق حيث المؤتمر. كانت الصالة شبة خاوية, خرجت للبوابة وما من منتظر, طالعت شرطيا مغربيا فسألته: كيف السبيل للوصول للفندق فما من أحد ينتظر إذ تأخرت الطائرة ساعات؟" طلب لنا تاكسيا ركنه سائقه في مرآب المطار في ساعة الفجر, وفاوضه على 250 درهما. وتحركت السيارة المرسيدس من المطار تجاه أغادير في عتمة الليل البهيم وساعات الفجر وقد خلت الطرقات تماما من أي بشر.
دارت عجلات السيارة تمخر الطريق الهادئ في فجر اليوم التالي للسفر. على جانبي الطريق وبعد المطار تطالعك أشجار النخيل المصطفة كحرس الشرف لزوار المدينة, صامتة, هادئة, تلوح أوراقها بوداعة مستقبلة ومودعة. ما يلفت الإنتباه في الطرقات هي كثرة التقاطعات التي يسيطر عليها "دوار", أكثر من 10 "دواوير" حتى الوصول للفندق من المطار. المباني بسيطة, عتيقة, لا تشي بنغم معماري متسق, تكاد تحس أنه ليس من معماري ذي بصمة أو فكر واضح وراء الواجهات التي تطل عليك بدون محتوى على امتداد الطريق. تبحث عيناك بلهفة عن نسق معماري أو روح أصيلة أو فكرة وراء التصميم – دون جدوى. في الأثير, تتنسم رائحة العتاقة في كل شيء في البيئة, حتى طراز السيارات يكاد يعود لحقبة منصرمة. تتعجب في نفسك! سيارات الأجرة البرتقالية الصغيرة تجري عبر الطرقات ويدور الفكر في حيرة كيف ما زال بها رمق من حياة وما تزال تسير, والأدهى كيف تتمكن هذه الكتلة الصغيرة من الحديد من حمل أرطال الأوزان من البشر وتجري بهم بسرعة عبر طرقات وشوارع المدينة. بعد نصف ساعة من القيادة السريعة وصلنا فندق "رويال أطلس" على المحيط الأطلسي في مدينة أغادير بعد يوم حافل.
\*\*\*\*
فندق "رويال أطلس" يقع على المحيط الأطلسي مباشرة, به سحر في التصميم يعكس روح الفن المغربي الرائع, كل التصميم الداخلي, والأثاث, مغربي بامتياز, ومشغولاته اليدوية الخشبية تتناغم بروعة تجعل من أروقة الفندق وساحاته وغرفه كقصر عربي من قصور"ألف ليلة وليلة" ولكن بروح معاصرة تجمع بين روح التراث وأناقة التجريد والحداثة. ممراته على امتدادها ومقابض الأبواب وردهات ما قبل "المصعد",ومكتب الإستقبال وصالة الفندق الرئيسة وتصميم البهو الداخلي المطل بفراغ على طابقين على طابق التسوية الذي يشرف على ساحة الفندق التي تواجه البحر وتتوسطها بركة سباحة على مستويات متراكبة وتحيطها ببراعة أشجار النخيل, ويطل عليها المطعم وبعض المرافق العلاجية, وكلها تؤدي للساحل الذي تم تبليطه والعناية به بشكل متعرج يحاكي تعرج البحر والشاطئ, كلها كانت متناغمة ومنسجمة مع أمواج البحر المتلاطمة التي كانت تتكسر على الشاطئ المقابل الممتد أمام الفندق.
من بوابة الفندق الخلفية المقابلة للشاطئ, يجد الزائر واحدا من أجمل الشواطئ من ناحية معمارية وتنسيق حدائقي يجمع بين الفعاليات التجارية السياحية كالمطاعم وبين الجلسات العفوية وبين بائعي التحف والكرات المضيئة للأطفال والألعاب المختفة وقد انتشروا في بهجة الليل والجو الساحر وتحت إنارة مصابيح الأعمدة التي تراقصت على طول الشاطئ تحاكي تراقص أمواج البحر الهادر. بمحاذاة البحر يجري شاطئ رملي تتناثر عليه مقاعد بسيطة خشبية مكسوة بالقماش القوي المقاوم للماء والمظلات, يجلس عليها المصطافون, يطالعهم الماشي من بعيد وقد استرخوا لأشعة الشمس لتفريغ"هموم" عام طويل من العمل الشاق ولإعادة الهمة والنشاط بعد قضاء عطلة مسترخية على شاطئ مدينة أغادير الساحر بترنيمات البحر الهادرة المنبعثة من عمق الأطلسي والمتكسره على شاطئ ممتد لا نهاية له في الأفق سوى ما تحبسه جبال يعلو أحدها, والقريب من الفندق, شعار كتب بالصخر (الله - الوطن - الملك).
\*\*\*\*
هدف الرحلة كان المشاركة في مؤتمر السير والجولان الذي عقد في مدينة أغادير بتنظيم من المعهد العربي لإنماء المدن بالرياض ومنظمة أركان سوس للتنمية والمحافظة على البيئة بالتنسيق مع وزارة الداخلية المغربية. برنامج المؤتمر كان يحتوي على زيارات للمدينة, تخللها السير في "سوق الأحد", وهو سوق مركزي للخضار والفاكهة, والأقمشة, ومستلزمات البيت من أدوات الضيافة, والهدايا والتوابل والتمور والعطور والملابس التقليدية, ويمتد لمسافة شاسعة, ويحتل قلب مدينة أغادير. وشمل البرنامج زيارة لميناء المدينة في جولة بالباص اعلى الجبل المقابل المشرف على بانوراما الميناء. في قمة الجبل, ثمة ساحة فسيحة اصطفت بها الباصات وتناثرت عليها بسطات لمعروضات من التحف التراثية,خناجر, وقطع خشبية منحوتة من التراث الشعبي, ونحاسيات ونماذج مصغرة لجمال طبعت بطبعة مغربية. وقفت الجموع على قمة الجبل المسور بجدران قلعة أثرية قديمة وأطلت العيون على منظر خلاب لميناء أغادير واللسان البحري الممتد والذي يغلف الخليج الصناعي الصغير الذي ترسو فيه السفن الصغيرة وحيث اصطفت مصانع صغيرة للصناعات البحرية.
شوارع مدينة أغادير, ومحاذاتها للمحيط والشاطئ تضفي على المدينة طابعا خاصا, كأية مدينة ساحلية. العناق اللامتناهي بين الأمواج المتكسرة على ضفاف الشاطئ تحيي باستمرار طبيعة هذه العلاقة الخاصة بين البحر وبين اليابسة. علاقة فيها الجود والتجدد والكرم, يرمي البحر بأصدافه على الشاطئ, ويمحو المد آثار أقدام الرائحين والغادين,وينحسر الجزر ليخط المصطافون آثارهم مرة أخرى ليعود المد فيحتضن آثارهم مجددا ويداعب حبات الرمل فيمحو ما علاها من أقدام, وهكذا, علاقة المد والجزر بالساحل الرملي وما عليه, وعناق متجدد بين البحر وبين اليابسة للمدن الساحلية التي تزهو بشمس الأصيل, ثم تتلألأ صفحات الماء بالاشعة الذهبية لحظة غروب الشمس وانعكاسها على الماء الرقراق المنساب عبر أمواج تنتسب لمحيط عاش حقبا وقرونا ومرت عليه أزمان وتاريخ وحضارات كان شاهدا عليها وأفلت وما أفل نجمه أو موجه. خواطر تتجدد مع تجدد الموج على شاطئ المدينة المغربية بين يدي "رويال أطلس" وقبيل انعقاد مؤتمر السير والجولان. وللحديث بقية
\*\*\*